مجلة "نتائج الفكر" الصادرة عن معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة

المجلد السادس. العـدد الأوّل. الرقم التسلسلي 09
السنة 2022. ص 164–183
EISSN 2773-2762 / ISSN 2477-992x

إفادة التداولية من العلوم الإنسانية

The benefit of pragmatism from the humanities sciences

د. ناجي نادية
Nadji Nadia
جامعة تيسمسيلت. الجزائر
benaboody14@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/12/28	تاريخ القبول: 2022/01/30	تاريخ النشر 2022/04/20

ملخص البحث

يعالج هذا المقال التداخل المعرفي بين التداولية، وهي أحد فروع علوم اللغة والتي تبحث في الاستعمال اللغوي أثناء العملية التواصلية، وبين علوم غير لغوية يمكن أن نحصرها ضمن دائرة العلوم الإنسانية كعلم الاتصال، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي، والفلسفة اللغة التحليلية، والمنطق، وفلسفة اللغة العادية، وقد لاحظنا تشعب هذا العلم وتداخله مع علوم قد تبدو للوهلة الأولى أبعد مجالا عن هذا الشق من المعرفة اللسانية.

الكلمات المفتاحية: التداولية، التداخل، العلوم الإنساية، العلوم المعرفية، فلسفة اللغة.

Abstract:

This article deals with the cognitive overlap between pragmatism, a branch of linguistics that examines linguistic use during the communication process, and non-linguistic sciences that we can confine to the department of Human Sciences such as communication science, social linguistics, psychology, analytical language philosophy, logic, and the philosophy of ordinary language, and we have observed the complexity of this science and its overlap with sciences that at first glance may seem far from this aspect of linguistic knowledge.

Keywords: Pragmatism, Overlap, Human sciences, Cognitive Sciences, Philosophy of Language.

1- مقدمة:

بما أن التداولية تدرس استعمال اللغة في السياق فاهتماماتها تنصبُّ على دراسة العلاقة بين المتكلم والمستمع بكل ما يعتري هذه العلاقة من ملابسات وشروط مختلفة، حيث تدرس مختلف العلاقات بين المنطوقات اللغوية وعمليات الاتصال والتفاعل، زيادة على ذلك اهتمامها أيضا بنوعية العلاقة الاجتماعية التي تجمع كلا من المتكلم والمخاطب، والتي تُبَثُّ عبر وسائل الاتّصال. فيكون بذلك المتكلم مضطرا لاستعمال عدّة طرق للتأثير والإقناع والإخبار والأمر...وفي ضوء هذا التصور تحاول المقاربة التداولية الإجابة عن مجموعة من الأسئلة المهمة مثل: ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ من يتكلم إذن؟ ماذا نصنع حين نتكلم؟ ولأجل من؟ كيف نتكلم بشيء ونريد شيئا آخر؟.

وبذلك اعتبرت التداولية علم تواصلي معاصر يعالج كثيرا من ظواهر اللغة ويفسرها ويساهم في حل مشاكل التواصل ومعوقاته ومما ساعدها على ذلك أنها مجال رحب يستمد معارفه من مشارب مختلفة (علم الاجتماع- علم النفس المعرفي- علم الاتصال- المنطق- المفلسفة التحليلية...) وبالتالي تستند التداولية على كثير من مكاسب المعرفة الإنسانية المختلفة، مما يكسبها طابع التوسع والثراء

2- علاقة التداولية بالعلوم الإنسانية:

2-1-علم الاتصال:

منذ أن وجد الإنسان على الأرض اهتدى «انطلاقا من فطرته وحاجته الطبيعية إلى الاتصال من أجل التفاهم ونقل المعلومات، وخدمة لهذه الغاية أوجد لنفسه وسائل متنوعة، وكانت اللغة أرقاها وأكثرها فعَّالية في الإبلاغ. غير أن استعماله لها لم يكن جزافيا وغير مضبوط، بل ظل مرتبطا بنظام تُكَوِّنُهُ مجموعة من القواعد، والغاية من كل ذلك ضمان نجاح الاتصال اللغوي»[1]. وقد يتعدى الأمر قضية التواصل البشري إلى قضايا اجتماعية وسياسية وثقافية «وقد عد بذلك "الاتصال" ضرورة إنسانية لتماسك الأفراد والجماعات وحتى الشعوب، فهو المحور المركزي الذي على أساسه يتشكل المجتمع وينمو ويتطور؛ بل صار كما يذكر "هوغ Hogue" يشكّل جزءا من ديكور الإنسان الذي عرف تطورات مع مرور الزمن. ويؤكد التاريخ الإنساني أن الاتصال في بداية أمره يتم بواسطة الإشارة والرمز، ثم سرعان ما تنبّه الإنسان إلى قدرات جهازه النطقيّ فاستعمله بأصوات متمايزة للتّفاهم مع الآخرين، ثمّ تنبّه إلى أعضاءه الأخرى فاهتدى إلى الاتصال الكتابي ليبلغ غير الحاضر بين يديه، وبهذا التطور استطاع أن يجعل الآخرين يشاركونه خبراته وأفكاره ومشاعره»[2].

ونظرا لأهمية قضية الاتصال –بأشكاله المختلفة– في حياة الإنسان فقد ولَّد ذلك «علما يدرس ذلك وهو "علم الاتصال". وتعززت بقوة حاجة الإنسان إليه في العصر الحديث، حيث أضحى من الضروري دراسة قضاياه دراسة علمية، من أجل الإفادة منها في حل الإشكاليات التي تطرح في إطاره، وهذا ما يمكن ملاحظته أثناء الحرب العالمية الثانية، والحرب الإعلامية التي دارت في الخليج العربي أيضا. إن مصطلح الاتِّصال "Communication" بالرغم من تداوله الواسع بين الأفراد والجماعات إلا أن مفاهيمه قد تنوَّعت. وذكر العلماء أنه مشتق من الكلمة اللاتينية "Communis" التي تعني في أساسها المشاركة؛ أي الاشتراك سواء في المعلومات وتبادلها، أو في المشاعر والاتجاهات ووجهات النظر.

ولكن ما يجب توضيحه في هذا المقام أن كلمة "الاتِّصال" تستخدم في سياقات مختلفة، لذلك تتضمن مدلولات عديدة؛ فباستعمالها المفرد تعني تبادل الأفكار والرسائل، أما في الجمع فتدلُّ على الوسائل التي تحمل مضمون الاتِّصال. وقد ورد في قاموس"Oxford" أن الاتِّصال يعني: (نقل أو توصيل أو تبادل المعلومات أو الأفكار بالكلام أو الكتابة أو الإشارات). فتبادل المعلومات يقتضي بالضرورة وجود مرسل ومستقبل أو أكثر في حالات متعددة؛ فحينما نتكلم نجد من يسمعنا، وعندما نكتب نتوقع من يقرأ لنا، وحينما نستخدم الإيماءات والابتسامات ننتظر لا محالة من يستقبلها. وقد ذكر كارل هوف لاند "Hof land" أن: (الاتِّصال هو العملية التي يقوم خلالها القائم بالاتصال بمنبهات (عادة رموز لغوية) لكي يعدِّل سلوك الأفراد مستقبلي الرسالة). فالاتصال يهدف في أساسه إلى تعديل سلوك المستقبل، انطلاقا من تصور معين يقدِّمه المرسل في رسالته اللغوية»[3]، ومن هنا فحتما نجد هذا العلم يتقاطع مع التداولية كونهما يركزان اهتمامهما على باث الرسالة ومستقبلهما وأحوالهما ومقاماتهما ونوع الرسالة.

وقد وجدنا في معجم اللسانيات الذي أشرف عليه "جون ديبوا" J.dubois تعريفين لعلم الاتصال: «أولهما: أن التواصل تبادل كلامي بين المتكلم الذي ينتج ملفوظا، أو قولا موجها نحو متكلم آخر يرغب في السماع، أو إجابة واضحة أو ضمنية (Explicite ou implicite)، وذلك تبعا لنموذج الملفوظ الذي أصدره المتكلم. فالتواصل ضمن هذا المفهوم نشاط يقوم على التبادل الكلامي بين متكلم يوجه كلامه نحو متلق ليجلب انتباهه إلى هدف ما. ثانيهما: التواصل حدث نبأ، ينقل من نقطة إلى أخرى، ونقل هذا النبأ يكون بواسطة مرسلة استقبلت عددا من الرسائل المفكوكة. فالاتصال عملية مركبة تقوم على استعمال وسيلة معينة –من أكثرها اللغة– لنقل المعلومات والخبرات إلى الآخرين، تتأسس على مجموعة من العناصر الضرورية لإنجاح الاتصال.

(وهذا ما عنيت به التداولية أيضا من سياقات مختلفة وكذا أطراف الرسالة أو الموقف التواصلي). وتبتغي إشراك المرسل إليه فيما يريده المتكلم، لذلك فهي هادفة إما بتلقي الإجابة عن المتلقين، أو التأثير فيهم من أجل تبني فكرة ما. والتداولية عند مؤسسها "أوستين" Austin (جزء من علم أعم، هي دراسة التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي. وبهذا التعريف ينتقل "أوستين" باللغة من مستواها اللغوي إلى مستوى آخر هو المستوى الاجتماعي في نطاق التأثير والتأثر). فالتداولية تدرس الاتصال اللغوي في إطاره الاجتماعي، والذي يملي خصوصيات تؤثِّر في الفعل الكلامي. كما تركز التداولية على المقصدية التي لا تتجلى إلا من خلال الاتصال اللغوي في مقام معين، لذا فهي تهتم (بدراسة اللغة التي يستعملها المتكلم في عملية التواصل، وعوامل المقام المؤثّرة في اختياره أدوات معينة دون أخرى للتعبير عن مقصده)»[4]، نلاحظ أن أوستن هنا ربط ربطا مباشرا بين التداولية وعلم الاتصال.

ومما تؤسس له التداولية وتعتبره من مرتكزاتها كذلك هو أنّ أهمية الاتصال تكمن في «أنه عملية نفسية واجتماعية تستجيب لرغبة الإنسان في التواصل لتحقيق غرضه، ويوضح هارولد لاسويل (Harold Dwight Lasswell) عملية الاتصال بدراسة القائل والمتلقي والقول أو الرسالة والوسيلة وأثر القول، ويقع في التداولية ضمن استعمال اللغة والقصد، وذلك في دراسة اللغة في علاقتها بمستخدميها، وميزت التداولية بين معنيين في كل ملفوظ أو كل فعل تواصلي لفظي: الأول؛ القصد الإخباري أو معنى الجملة. والثاني؛ القصد التواصلي أو معنى المتكلم في ضوء السياق، وقد استبعده علم اللغة التقليدي الغربي، واعتنى بالتراكيب والمعاني، واستدركت التداولية... هذا الجانب، وجعلته في مقدمة بحثها، فاللغة حسب منهجها، لا تنعزل عن استخدامها ولا تنحصر الدراسات اللغوية في علمي النحو والمعاني، بل تفاعل مع محيطها وتتأثر بمستخدميها، واستفادت من معطيات نظرية علم الاتصال في دراسة استعمال اللغة، وقد نشأ داخل علم الاتصال اللغوي الذي يعنى بدراسة الشفرات اللغوية في مقابل الاتصال غير اللغوي (الحركات البدنية والتعبيرات الحركية والسلوكية والرموز)، وقد حاولت البراغماتية إقامة علاقة بين المعنى المعجمي (أو المعنى الحرفي تريد به المعنى المباشر والمعنى النحوي) والمعنى السياقي في مواقف معينة، ومعنى الفعل الذي ينتج عن التفاعل الاجتماعي، وحاولت أيضا إدراج المعنى اللغوي في علاقات أعم منطقيا، وهنالك فرق بين المعنى المعجمي (الحرفي) والمعنى السياقي والقصد التواصلي، فالمعنى الحرفي (المباشر) مختلف عن السياقي بيد أنه يعبر عن معنى من معاني اللفظ أو التركيب، ويفهم في إطار لغوي، والمعنى السياقي لا يفهم مقطوعا عن سياقه، وله أبعاد أخرى تؤثر فيه كالجانب النفسي والاجتماعي والاتصالي

والمقام الخارجي بمفهومه البلاغي. وقد نشأ في ظل علم الاجتماع ما يعرف بأفعال التواصل التي تعبر عن منطوق تفاعلي، وهذا الاتجاه يقسم اللسان إلى نظام القواعد النحوية ونظام القواعد التواصلية»[5]، وبالطبع يتدخل هنا الجانب الطبيعي للمنطوقات اللفظية فيزيائيا؛ بمعنى البنية الصوتية والتركيبية (نحوا وصرفا) في الخطاب المنطوق، ولهذه العناصر بالتأكيد أثر كبير في عملية صناعة المعنى وبالتالي إنجاح عملية التواصل أو التأثير في المتلقي.

2-2- علم اللغة الاجتماعي:

المجتمع هو أول وأهم بيئة يأخذ منها الإنسان اللغة سواء كان هذا المجتمع مجسدا في الأسرة أو الشارع أو المدرسة أو غيرها و«الذين عُنوا بعملية التفاعل الاجتماعي وتنبهوا إلى الدور الرئيس الذي يضطلع به المحيط عموما والسياق خاصة، أولوا -مستلهمين الكثير من أعمال ليف فيغوتسكي (Lev Vygotski)- اهتماما بالغا لدراسة التطور التداولي ووظائف التواصل عند الطفل، وكذا تفاعل الطفل مع محيطه ومع الصيغ اللسانية المختلفة التي يتلقفها عن الآخرين. ولعل أحدث نظرية تنحو هذا المنحى في دراسة عملية اكتساب الطفل للغة ما أصبح يدعى بنموذج المنافسة الذي اقترحه كل من باتز وماكويني. ويستند هذا التصور إلى القول بأن الصيغ اللسانية إنما يتم إبداعها، وتسييرها، وفرضها، واكتسابها واستعمالها، في إطار علاقة هذه الصيغ اللسانية بوظائفها التواصلية»[6] ويكون ذلك حتما داخل دائرة المجتمع الذي ينشأ في الفرد مكتسبا الكثير من أفعال الكلام من علاقاته بغيره من أفراد الجماعة التي نشأ وترعرع فيها بكل ما تشمله هذه الجماعة الإنسانية من حمولة فكرية وثقافية في إطار تواصلي.

وتأكيدا لهذه الفرضية «ومن الشواهد اليومية التي تشفع لهذه المقاربات الجديدة ما يترتب على الطفل من سلوك في حالة الازدواجية اللسانية؛ وخاصة حين يتكلم لسانين مختلفين في أوقات مختلفة بحيث يتميز أحدهما بوضع اجتماعي أهم؛ كما هو الشأن لدى كثير من الأطفال الجزائريين الذين يتكلمون اللسانين العربي والأمازيغي، بحيث يظهر للطفل منذ سنواته الأولى أن إخوته يتكلمون هذا اللسان في البيت دون اللسان الآخر»[7]. وتأسيسا على ما سبق نلاحظ أن المقاربة التداولية تشترك أو تتقاطع مع المقاربة التي تنتهجها اللسانيات الاجتماعية وذلك باللجوء إلى العوامل الخارجية التي من خلالها نقوم بوصف الوقائع التي تتناولها بالدراسة، وارتكازا على هذا التوصيف، يضحى للسياق أو بالأحرى لمفهوم السياق أهمية قصوى لهذين العلمين.

ويبدو أن مفهوم السياق الاجتماعي قد ساعد كثيرا وفي مقامات مختلفة على «فهم كثير من المسائل اللسانية ذات البعد الاجتماعي، فدرجت الأبحاث في حقل اللسانيات الاجتماعية وعلم

الاجتماعي اللساني على إدراجه كواحد من العوامل الهامة المعينة على فهم الظواهر اللسانية، وقد خلص ويليام لابوف (William Labov) إلى القول إن البحوث الميدانية الأولى التي أنجزها حول استعمال اللسان الإنجليزي في نيويورك قاده إلى الاعتقاد بأن المتغيرات الفونولوجية تتحول بشكل مضطرد تبعا للأسلوب وللسياق. أما في مجال تعلم الألسن الأجنبية، فقد اجتهدت المقاربة التواصلية، إحدى طرائق التعليم الحديثة المنتشرة في البحث في تطور الأداء اللساني الاجتماعي والتداولي لدى المتعلمين، وأظهرت أن المتعلم سرعان ما يبدأ في التمييز، ضمن اللسان الهدف، بين مختلف الأساليب اللسانية. لقد نجم عن التعاون العلمي بين التداوليات وعلم الاجتماع نشأة فرع جديد من فروع التداوليات أطلق عليه ليتش اسم التداوليات الاجتماعية « Socio-Pragmaticics» وميزه عن التداوليات العامة التي تعنى في تصوره بالظروف العامة التي تكتنف استعمال اللغة للتواصل، ولا تحتفي بالظروف المحلية التي تنتمي دراستها إلى حقل أقل تجريدا هو حقل التداوليات الاجتماعية»[8] والتي أصبح واضحا لديها أن قضية أو مبدأ التعاون ومبدأ التأدّب اللذان قامت عليهما التداولية يشتغلان بطرق مختلفة ومتعددة باختلاف وبتعدد الثقافات من جهة، والمجموعات اللسانية، والحالات الاجتماعية، والطبقات الاجتماعية من جهة مقابلة.

2-3- علم اللغة النفسي:

من فروع علم اللغة نجد علم اللغة النفسي، وهو علم حديث «يدرس العوامل النفسية والعصبية والحيوية والعقلية المعرفية التي تمكّن الإنسان من اكتساب اللغة وتؤثر فيها، والتي تحدث في أثناء فهم اللغة واستعمالها، ويدرس قدرات المشاركين التي لها أثر كبير في أدائهم اللغوي (الانتباه، الذاكرة و الشخصية، وعيوب النطق والتعلم)، ولا يطلق على الكلام لغة إلا إذا أدى وظيفة نفسية قائمة على التحليل والتصور ورد الفعل، ولا تدرس اللغة بمعزل عن العوامل النفسية والعقلية والاجتماعية، وللبراغماتية علاقات مباشرة مع اللسانيات النفسية واللسانيات العصبية (دراسة اللغة في المخ)، وهنالك علاقة بينها وبين علم النفس الإدراكي فيما يتعلق بمعالجة قضايا اللسان وإنتاجه وتطور مفاهيم القوة الإنجازية والتضمينات والافتراضات السابقة؛ ويساعد علم النفس النمو في اكتساب اللغة ودور السياق في اكتساب الطفل اللغة، وقد نتج عن التلاقح بين البراغماتية اللسانية "البراغماتية اللسانية النموية" أو ما يعرف (بتداولية النمو)، وهي التي تدرس تطور استعمال اللغة في المراحل العمرية»[9]، حيث إن اكتساب الإنسان للغة وتطوير هذا الاكتساب يتغير تغيرا تطوريا وبشكل إيجابي مع تقدم الإنسان في العمر.

ويذهب متخصصو هذا الفرع من المعرفة إلى التأكيد على أنّ «الدراسات اللسانية النفسية على عملية التطور في اللغة –على العكس مما ذهب إليه أفرام نعوم تشومسكي Avram) (Noam Chomskyوللمدرسة النفسية "بالو ألتو" (Palo Alto) جهود في الدراسات اللغوية الحديثة– وهي التي تأثر بها (جمبرز) في اللسانيات الاجتماعية العرقية (الإثنولوجية)[10*]، وقد عالجت اللغة في ضوء التواصل والمؤثرات النفسية، وقد ولدت "نظرية الملاءمة" من رحم علم النفس المعرفي، وهي تفسر الخطاب وظواهره البنيوية في الطبقات المقامية المختلفة. والحديث هنا يستوجب الإشارة إلى أن علم النفس في الغرب نحا نحوا ماديا في القرن التاسع عشر متأثرا بالمنهج التجريبي، وقد اعتدّ بالظواهر النفسية الحسية فقط، وكانت اللغة من مباحث علم النفس، وتأثرت بهذا الاتجاه، وظهر في البنيوية اتجاه نفسي يعالج علاقة اللغة بالظواهر النفسية التي تتعلق برد الفعل وما يترتب عليه من استجابة لفظية»[11]، وهذا ما اصطلح عليه بالأسلوبية التعبيرية وهي فرع من الأسلوبيات والتي اهتمت بالجانب العاطفي الضاغط للغة على المتلقين خاصة في النصوص الأدبية الراقية.

لنتمعن في هذا المثال لـ(جيل سيوفي) و(ريمدونك) في كتابهما، نصُّه أن نتصور دخول (أمين) إلى غرفة، تكون نافذتاها مفتوحتين، فيقول (لفاطمة) الجو ليس ساخنا هنا. فترد فاطمة قائلة: نعم أنت محق. فإجابة فاطمة في هذا المثال ترتكز كثيرا على جانب شخصيتها باعتبارها سامعا، كذلك تحيل هذه الإجابة إلى حدة الانتباه وسرعة البديهة، وقوة الذاكرة الشخصية، والذكاء...وبعض جوانب الطبع... وهذه العناصر كلها تشرح ملكة التبليغ الحاصلة في الموقف الكلامي[12]. ويرجع العديد من الباحثين في الغرب إلى أن الاهتمام بالأبحاث «اللسانية النفسية psychlinguistique"، لا سيما تلك التي عنيت بمسألة اكتساب اللغة، بأن البعد التداولي يزداد منذ أكثر من ثلاثين عاما؛ فمنذ أعمال هاليداي (**Halliday**)، باتاز(**Bataz**)، كاريملوف وسميث (**Smith**) وبرونز اشتد الوعي بضرورة الالتفات إلى اللغة ليس بوصفها اكتسابا للنسق التركيبي وحسب، بل بالنظر قبل ذلك على أنها عملية تطور اللغة لدى الطفل بوصفها إرساء لنسق تواصلي يخضع فيه استعمال العلامات إلى بعض القواعد والشروط التي يجب على الطفل أن يتعلم كيف يسيّرها»[13]، ولعل الكثير من الشواهد أو المظاهر اليومية المرتبطة باكتساب الطفل للغة جعل العديد من الباحثين في هذا الميدان يركزون على ضرورة التخلي عن تصورات اللسانيات السنكرونية لعلاقة الفكر باللغة والتركيز على العملية أو القضية في علاقتها بالنمو العام للأطفال لا من وجهة علاقة الفكر باكتساب اللغة.

مما أدى –تأسيسا على ما سبق ذكره– إلى نشوء عن هذا التصور الجديد «دراسات عديدة تعنى بكيفية تطوير الطفل للوظائف والصيغ اللسانية التي تدل على ارتباط اللسان بالسياق التلفظي أو عملية التواصل: كالصيغ الإشارية (deicitiques) أفعال الكلام، الطرق الخطابية من حروف جر وإضافة وغيرها. كما انكبت أبحاث أخرى على دراسة عملية اكتساب اللغة من قبل الطفل في علاقتها بالمحيط الاجتماعي والثقافي الذي ينجز فيه الطفل أولى خطوات تعلمه؛ إذ لا يمكن أن يقتصر تعلم الطفل للسانه على سلسلة من القواعد النحوية التي تألفه وكأنها نسق مجرد، بل إن الطفل يتعلم بالتوازي مع ذلك سلوكا خاصا يتلخّص في الطريقة التي يتفاعل بها إزاء التواصل الكلامي، وقد تبين في هذا الإطار أن الممارسات اللسانية تختلف باختلاف الأصل الاجتماعي للمتكلم»[14]. وإذا توجهنا صوب علم النفس المعرفي فإننا نجده هو الآخر ما انفك يتقاطع في جملة من تصوراته ببعض التصورات التداولية، ذلك أن فهم الجملة يتوقف على عدد من العوامل منها التكرار والحداثة والسياق والخبرة السابقة والدور المتوقع من قبل المستمع. كما تلعب عوامل أخرى في عملية الفهم مثل النبرة وهو الضغط على صوت أو مقطع معين عند نطق الكلمة أو الجملة، والتنغيم الذي يتمثل في عملية التنوين أو التذبذب في إيقاعات اللفظ الصوتي من حيث تتابع النغمات الموسيقية في الصوت الكلامي[15]، ويمثل السياق من ضمن كل هذه العوامل العامل الأقوى إلى تحديد معاني الملفوظات وتأويلها، وهذا تماما ما تصبو إليه التداولية، وهذه الظواهر النفسية لا يمكن للنحو أو القاعدة النحوية أن تعلمها للطفل.

ويبدو واضحا أنّ ما وضعه علم النفس من نظريات وأسس نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أخذ يتزعزع فـ «لقد راحت الدراسات النفسية في السنوات الأخيرة تعاود التفكير في جملة من المسائل التقليدية بأدوات جديدة ورؤى مختلفة تستلهمها من التداوليات من مثل مسألة التفكير، ونمو الطفل، وما يتصل بالاستعمال اللغوي من قبل الأفراد والأمراض المحتملة التي من شأنها أن تعيق التواصل السوي لديهم»[16]، وعليه فليس من العجيب والغريب «أن نشهد إقبالا من الباحثين في العقبات التي تحول دون تمكن بعض الأفراد المتكلمين من الاستخدام لقواعد التواصل اللساني على الرغم من امتلاك هؤلاء الأفراد على القدرة على تجاوز العقبات الفونولوجية والتركيبية الضرورية لحسن التحاور والتعبير. ولقد أنتج التوجه الجديد الذي انتهجته علوم النفس من مثل علم النفس المرضي، وعلم النفس العصبي، وغيرهما من الفروع التي باتت كثيرة الاهتمام بما جد في حقل التداوليات، أنتج هذا التوجه دراسات جديرة بالعناية من مثل تلك التي تعنى بتحليل إنتاج الملفوظات وفهمها ضمن أطر المحادثة والسرد وغيرهما من أطر التواصل اليومية، فوجه ذلك عناية

الباحثين إلى نمط جديد من أمراض الكلام والتواصل عند الكبار والصغار، هي الأمراض أو العيوب التداولية»[17]، ولولا تداخل هذين العلمين لما اهتدى العلماء إلى هذه الفتوحات المعرفية والتي اختصرت الكثير من العقبات والمعوقات في سبيل التعليم السليم للغة لدى المرضى نفسيا.

وساعدت هذه الرؤية الحديثة وأسهم هذا المفهوم الجديد بشكل كبير ومفيد في وضع اليد على عديد العيوب التي تصادف إنتاج اللغة كظاهرة الانسجام فقد ساعدت اللغة علم النفس التربوي على تدارك ذلك، وقد ساهمت التداولية أيضا في مساعدة التربويين في فهم الأفعال الكلامية غير المباشرة ونعني بها الأمر والسخرية والتهكم غير المباشرين.

2-4-صلة التداوليات بفلسفة اللغة التحليلية:

لا شك أن البحث اللساني الغربي قد نشأ وترعرع في كنف الفلسفة النظرية وظل اللسان مرتبطا بها حتى العصر الحديث (القرن التاسع عشر) الذي استقل فيه الدرس اللساني عن فروع المعرفة الأخرى (الفلسفة والمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع)، وكانت للبدايات الفلسفية الأولى في حقل التحليل المنطقي أكبر الأثر في تحديد الأبعاد الجديدة لفلسفة القرن العشرين، وقد تأثرت الفلسفة الحديثة بمناهج العلوم الطبيعية، فنشأت تيارات فلسفية جديدة ذات طابع تجريبي، ومنها الفلسفة التحليلية التي تبنت منهجا وسطا بين الواقعية المادية والعقلانية المثالية، وبهذا المعنى ترفض البراغماتية الفلسفات التأملية أو العقلية المثالية التي تتميز باستخدامها الوضع المثالي ونزوعها إلى التنظير محاولة فرض نظام واحد على العالم المتعدد المختلف، وتقيم فلسفة قوامها أن قيمة الأفكار المجردة تقاس بمدى مطابقتها للواقع[18].ورأت أن فهم الإنسان ذاته وعالمه يرتكز في المقام الأول على اللغة، فهي التي تعبر عن هذا الفهم ومادة التعبير الذي يجسد رؤية صاحبه، وأنها أول مبحث من مباحث الفلسفة الرئيسة، فهي مقدمة البحث الفلسفي القديم، وقد عدّ فلاسفة التحليل هذا المبدأ المنهجي الأصيل علامة قوة منهجهم وصلاحيته، وقد اهتمت هذه الفلسفة بتحليل العبارات الفلسفية والعلمية، فارتبطت بالعلوم ومناهجها، وحاولت وضع منهج علمي جديد يأخذ بالفلسفة نحو الاتجاه الذي تراه صحيحا يقوم على ضوابط واقعية ومنطقية أيضا في مقابل اتجاه فلاسفة ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) الذين يناقشون مسائل الفلسفة ومفاهيمها بوسائل فلسفية خالصة في ضوء التأمل الخالص، وحاول فلاسفة التحليل أن يبرهنوا بوسائل منطقية ومبادئ تجريبية أن معظم قضايا الفلسفة وجميع القضايا الميتافيزيقية لا معنى لها؛ لأنها لا تستطيع تزويدنا بخبرات تجريبية يمكن التحقق منها، كما أنها ليست منطقية أو رياضية، فوضع الاتجاه التحليلي الفلسفي المنطق الرياضي الجديد لتطوير مناهج علمية جديدة وبناء اللغات المنطقية، وعرف بمنطق العلوم (وأبرز رواد هذا الاتجاه

ردولف كارناب (Rudolf Carnap) صاحب كتاب منطق اللغة)، والجانب المنطقي يمثل البنية التصورية للمعارف البيئية بيد أنه غير كاف في وصف المعنى، فالجانب الصوري يجافي الجانب الواقعي الحقيقي أحيانا[19].

وحسب العديد من الباحثين فإن الفضل يعود في اكتمال البراغماتية اللسانية ومنهجها التطبيقي إلى المدرسة التحليلية الفلسفية، وأشهر روادها الفيلسوف الألماني جوتلوب فريجه (Frege Gottlob) رائد المدرسة المنطقية الرمزية والتحليلية الذي اتخذ من التحليل المنطقي منهجا لمعرفة العناصر المنطقية في اللغة، وهي التي تؤلف مع غيرها من العناصر اللسانية الأساس في بناء لغة رمزية، يتجلى فيها المنطق والاستدلال، وقد تناول هذا في كتابه "أسس علم الحساب"* الذي عالج فيه قضايا البراغماتية اللسانية، فميز بين اللغة العلمية ولغة التواصل، وذهب إلى الاعتقاد بأن اللغة الطبيعية قابلة لمعالجة دقيقة خاصة، وأنه بالإمكان استخلاص شروط عامة للتواصل، وفرَّق فريجه بين المعنى والمرجع، فالمعنى يحدد في ضوء السياق وتصاعد الحقيقة المشروطة، فمعنى الجملة يقوم على شروط حقيقية تعين دلالتها، وتنأى عن الافتراض والتأمل، فمعنى الجملة الحقيقي فيما يمكن مشاهدته والتحقق منه في صلب الممارسة اليومية لألعاب اللغة، ورأى فريجه أنه لايجب الخلط بين المعنى الظاهر من القول والمعنى المقدر أو المضمر؛ لأن هذا يعني الخلط بين الجملة والقول والمرجع (الشيء ذاته الذي نتكلم عنه)، وفرق بين اسم العلم والمحمول الاسمي الّذين يشكلان القضية المنطقية الحملية[20]، فرأى أن وظيفة المحمول تصورية من حيث إسناد جملة من الصفات المتصورة إلى علم معين، وهذا العلم يؤدي وظيفة إشارية بحتة وغير قابل للاقتران بلفظي الحكم "بعض" و"كل"، وميَّز بين المظاهر المحددة للحقيقة والمظاهر غير المحددة، فرأى أن تحديد الحقيقة يستوجب ضرورة إدخال اعتبارات براجماتية. ترتبط الفلسفة التحليلية بالتداولية من جوانب كثيرة ومتنوعة فكتابات راسل (Russell) وفريغه (Frege) وفتجنشتاين (Wittgenstein) وكرناب (Carnap)وغيرهم من مختصي هذا العلم أو هذا التوجه قد مهدت لتكوين الأنموذج التداولي من خلال صياغة أهم المفاهيم التي شكلت جهازه النظري. وسبب ارتباط التداولية بالفلسفة التحليلية ذلك أن اللغة (langage)[21].

ومن جهة مقابلة و«على الرغم من الاختلافات التي مابرحت تميز مختلف التوجهات الفلسفية التي انتمت إلى هذا التيار الفلسفي الجديد، أصبحت مسألة ضرورية وجب النظر فيها كمقدمة مهمة وضرورية لمسائل فلسفية أخرى. ولعل ما يثير الانتباه مما تتميز به الفلسفة التحليلية، وهي تتجه صوب تحليل اللغة، عزوفها عن اللسانيات، فلا تجد إلا قلة من الفلاسفة التحليليين

الذين كانوا على اتصال بعدد من اللسانيين، فلا أفادوا منها ولا هم أفادوها. بل إن الفلسفة التحليلية اتجهت –مقابل عزوفها عن اللسانيات أقرب العلوم الإنسانية إلى اللغة– إلى مادة المنطق، تتخذ منها أداة لمدارسة اللغة. فلا غرو إذن أن تتخذ بعض الدراسات التاريخية، قصد التعريف بنشأة المنطق الحديث منطلقا لها، وتخص منطق فريغه (Frege) بالذكر، فمنطق فريغه –في نظرهم– يمثل الخلفية المعرفية لمختلف التحولات التي شهدتها الفلسفة التحليلية منذ بداية القرن العشرين. لقد أسهم المنطق الحديث في إمداد الفلسفة التحليلية بما كانت ترومه، مقاربة مسألة اللغة مقاربة منطقية للتحقق من حسن مقاربة المسائل الفلسفية وعلميتها. فإذا صادفت أحدهم يشير إلى الفلسفة التحليلية بـ«فلسفة ما بعد فريغه» Post-fregeenne علمت السر في ذلك»[22].

وتأسيسا على ما سبق فـ «إن غاية فلسفة اللغة البحث في المعرفة من خلال الطريقة التي يتم التعبير عنها وتبليغها بواسطة اللغة، وقد تزامن ميلاد الفلسفة التحليلية مع الدعوة إلى مدارسة المسائل الفلسفية بواسطة تحليل اللغة، وعلى الرغم من أن مصطلح الفلسفة التحليلية يحيل إلى جملة من الموضوعات*، بيد أن هذه النظريات الفلسفية جميعها تصطنع التحليل اللغوي في مقاربة المسائل الفلسفية. فإذا كان عزوف علماء الفلسفة التحليلية، على اختلاف مشاربهم وتنوع توجهاتهم، عن اللسانيات على الرغم من أنها أقرب السبل المؤدية إلى اللغة، فذلك لأنهم استرشدوا بالمنطق، والمنطق وحده، قصد معالجة القضايا المرتبطة باللغة»[23].

ويرى العديد من المتخصصين أن وصف «الفلسفة التحليلية بفلسفة ما بعد فريغه، فذلك لأن تأثير المنطق الجديد الذي أسهم في تشييده فريغه كان له أثر واضح في نشأتها، ومن ثم فإن المعرفة بتطور المنطق الحديث من شأنه أن يُبِين عن كثير من ملامح الفلسفة التحليلية، إذ إن منطق فريغه يعد من قبل الكثير من متتبعي تطور الفلسفة التحليلية، الخلفية المعرفية لمختلف تفرعات الفلسفة التحليلية منذ مطلع القرن الماضي، وتحولاتها. ولئن أصبح متداولا أن اللغة خليقة بأن تقارب من وجهات نظر ثلاث، تركيبية، دلالية، وتداولية، فإن البعدين الأولين ظلا لعقود متوالية من صلب اهتمام المنطق، وهو إلى حد ما تصور لم يختلف فيه فريغه، أو روسل أو فتجنشتاين، وقد دعا ذلك بعض الفلاسفة المهتمين بالبعد التداولي للغة إلى ضرورة نكران المنطق والتحرر من سطوته»[24]، وبذلك ظهرت عدة ندارس أو لنقل مفكرين ذوي توجهات فلسفية*.

ليخلص الباحث في هذا المجال أن تطور المنطق قد أسهم في تطوير الفلسفة التحليلية وذلك بـ «إدراج المكون التداولي في دراسة اللغة وتحليلها حتى تتمكن من مقاربة باقي المسائل الفلسفية الأخرى، ولئن بات معلوما منذ تشارل موريس أن اللغة، شأنها شأن كل نسق سيميائي آخر،

خليقة بأن تقارب من مناحي ثلاث هي المنحى التركيبي، والمنحى الدلالي والمنحى التداولي، فقد ظل المنحى التركيبي لدى عدد من فلاسفة التحليل من مثل فريغه، وراسل، وفتجنشتاين، حتى مرحلة متأخرة من أعمالهم، والبعد الوحيد الذي ينتمي إل المنطق، وتمخض عنها بلورة مناطق (جمع منطق) مختلفة، مهدت السبيل نحو التكفل بكل أبعاد اللغة الثلاث في مقاربة اللغة مقاربة منطقية، متحررة من قيود المنطق المعياري ذي النزعة التركيبية»[25].

ويبدو جليا «أن تصور كرناب للتداوليات مر بمرحليتين، فقد تقاسم في المرحلة الأولى تصور موريس، وتقسيمه الثلاثي للسيميائيات إلى تركيبيات ودلاليات وتداوليات، وإخضاع فروعها هذه إلى علاقات متبادلة ثابتة. وقد تزامن هذا التصور بإسهام كرناب، إلى جانب موريس ونوراث، في الإشراف على مشروع توحيد العلوم التي اضطلع بها عدد من أعضاء حلقة فيينا ذات التوجه الوضعي المنطقي. أما تصوره الثاني فإنه أقرب إلى التصورات التداولية الحديثة منها إلى تصور موريس، إنه انتقال من تداوليات وضعية إلى تداوليات وصفية. ولئن نظرت في التعريف الذي خص به التداوليات ضمن كتابه في الدلاليات (1942)، لألمحت الفوارق التي وضعها للتمييز بينها وبين التركيبيات من جهة الدلاليات من جهة أخرى، (إننا نميز، في كل تطبيق للغة، يقول كرناب، بين ثلاث عوامل رئيسية هي: المتكلم، والعبارة المستعملة، وما تحيل إليه هذه العبارة، فإذا كان البحث يعنى بالمتكلم فهو ينتمي إلى حقل التداوليات، وإذا كان يعنى بما تحيل إليه العبارة فهو ينتمي إلى حقل الدلاليات، أما إذا كان يعنى بالعبارة دون المتكلم وبما تحيل إليه فهو ينتمي إلى حقل التركيبيات) »[26].

ومن المؤكد أن النزعة الوضعية واضحة في تصور كارناب للتداوليات، فلقد ظل «لمدة طويلة متوجسا من كل تداوليات لا تحمل الطابع الوضعي، فإن شئت بيانا لذلك فانظر في بيانه لمجموع الأبحاث التي من شأنها الانضواء في دائرة التداوليات تجد يذكر منها التحليل الفيزيولوجي لآليات الكلام الصوتية والذهنية، والتحليل النفسي لمختلف المعاني الضمنية للكلمة الواحدة عند الفرد الواحد، والدراسات الإثنوغرافية والاجتماعية للعادات اللغوية عند القبائل، والأفراد بمختلف أعمارهم»[27]، وقد بذل هذا العالم جهدا معتبرا «كما فعل أقرانه من حلقة فيينا، في تقويض أركان التصورات الميتافيزيقية، ففي إحدى كتاباته راح كارناب يكشف عن مدى افتقادها إلى البرهنة العلمية، (ففي حين ذهب الكثير من الفلاسفة إلى أن تعاليم الميتافيزيقا باطلة لأنها تتعارض مع معارفنا الوضعية، وفي حين قرر البعض منهم أنها تعاليم يقينية على اعتبار أن مسائلها تتجاوز حدود المعرفة البشرية، أعلن الكثير من خصوم الميتافيزيقا أن الاشتغال بها جهد عقيم لا طائل وراءه)» [28].

2-5- صلة التداوليات بفلسفة اللغة العادية:

من المعروف لدى دارسي علوم التواصل اللغوي وغير اللغوي على السواء ومتخصصي فلسفة أنّ «اللغة العادية للتفكير السيميائي واللساني هي وسيلة للتواصل قبل كل شيئ، لا تتجلى إلا في أثناء الكلام، ولا سبيل إلى معرفة طبيعتها إلا بالتحول بها إلى دراسته؛ فقد بين أوستين أن كثيرا من الأفعال التي لم تنتبه إليها الممارسات اللسانية السابقة لا تعبر بالضرورة عن واقع فتوصف بالصدق أو الكذب*؛ مثل الأفعال التي تأمر بشيء أو تدعو إليه، أو تسميه، وغيرها من أفعال الكلام التي لا يقوم بها الفرد إلا متكلما، ولا تصلح المقاربات التقليدية لاستكشاف سير عملها في أثناء التواصل عموما والمحادثة خصوصا. ولاحظ أوستين أن كثيرا من الملفوظات لا يمكن وصفها لا بالصدق ولا بالكذب دون أن تفتقد المعنى؛ وهي تلك التي نقصد بها فعل شيء ما وتقتضي اللجوء إلى السياق من أجل إدراك معناها، ولا يمكن الحكم بكذبها إذا ما انتفى السياق، لكن نقول أن الفعل المقصود لم ينجز عن قصد أو لم يفلح كلية أو ما شابه ذلك من شروط الاستعمال التي يجب اللجوء إليها –على حد تعبير ريكاناتي (Récanati)- من أجل تمييز المعنى التداولي في مقابل اللجوء إلى شروط الصدق أو الكذب من أجل تمييز المعنى الوصفي»[29].

ويذهب الكثير من الباحثين إلى الاعتقاد إلى أن ميدان فلسفة اللغة يتحدد في «اتجاهين بارزين؛ اتجاه منطقي أسسه كل من فريغه وروسل وطوره من بعدهما كل من شورش (Church) وكرناب وبريور ((Josef Breuer) ومونتاغ (Richard Montague) وكريبك وكبلان وبلناب*، ويركز هذا الاتجاه على العلاقات القائمة يبين الكلمات والأشياء، ويعمل على تحليل شروط صحة القضايا التي تعبر عنها الملفوظات التقريرية، بينما يعنى الاتجاه الثاني، وهو تحليل اللغة العادية، الذي أنشأه كل من مور وفتجنشتاين، الثاني وطوره من بعد كل من أوستين وغرايس وسيرل، بكيفية استعمال اللغة العادية والغرض منها ضمن عملية التواصل. ويركز هذا الاتجاه على استعمال المتكلمين للغة وتحليل شروط النجاح المتعلقة بمختلف أفعال الكلام، مثل أفعال الإحالة والإسناد، أفعال التلفظ، الأفعال الأدائية، التي ينوي المتكلمون القيام بها أثناء الكلام. لقد أسهم أصحاب هذا الاتجاه المنطقي في وضع بعض الأسس لنظرية الدلاليات اللسانية وذلك بصياغة دلاليات منطقية اعتمادا على النزعة الصورية المنطقية، إذ يتمثل فهم دلالة ملفوظ تقريري في تحديد الشروط التي تجعل من هذا الملفوظ ملفوظا صحيحا. لقد صاغ هؤلاء المناطقة قصد بلوغ الغايات التي كانوا يتوخونها، فلسفات منطقية مهمة؛ مثل نظرية الأنماط لروسل، منطق المعنى والتقرير لشروش، منطق

الجهات لكرناب ومنطق الزمن لبريور ومنطق الإشارات لكبلان، وهي أبحاث أثبتت فعاليتها في تحليل الشكل المنطقي للقضايا وشروط صحتها»[30].

ويبدو جليا أن أوستين كان على اقتناع « كبير من أن اللغة العادية هي الوسيلة المثلى التي تمكن من مقاربة الوقائع ولا يمكن تمثل الواقع إلا من خلالها؛ فاللغة العادية ليست بالنسبة إاليه مجرد وسيلة عادية يتعاطاها الفرد، إنما يستعمل كلماتها بكل حذق تمكنه من إقامة كثير من الفوارق التي لم ينتبه إليها فلاسفة عصره، بل أكثر مما كانوا يظنون. و لأن الكلمات عادية وجد متداولة، فهي إذن ذات أهمية بالغة بالنسبة للدرس الفلسفي، تجسد الفوارق التي رأى الإنسان –عبر العصور– ضرورة إقامتها، وكذا العلاقات التي توصلوا إلى إقامتها من جيل إلى آخر. ولقد أشار أوستين أن أدنى انتباه إلى هذه الوقائع، من منطلق أن لا شيء يقع دون سبب، إن تعدد الصيغ يرتبط ارتباطا بتعدد الأسيقة، بحيث يكون مجبرين على انتقاء هذه الصيغة أو تلك، وإذا ما بدا لنا هذا الاختيار أحيانا اعتباطيا، فإننا عادة ما نميل إلى هذه دون تلك، وإذا ما كان الآمر كذلك، فإننا مساقون إلى الاعتراف بأن ثمة شيئ في الحال العامة المحيطة يفسر إذا ما كشفنا عنه، لماذا استعملنا هذه الصيغة ضمن هذه الحال، والأخرى ضمن تلك، فتكشف لنا اللغة بذلك عن تعقيد الحياة. كما حذر أوستين من مغبة الخطأ الفادح الذي كثيرا ما وقع فيه كثير من فلاسفة من جهة أخرى بأن استعمالات اللغة محدودة، وكثيرا ما نبه إلى أن فلاسفة عصره كثيرا ما يعتقدون بأنهم لامسوا اللانهائي حالما يكتشفون سبعة عشر تعبيرا. لم ينتبه الرعيل الأول من المناطقة والفلاسفة التحليليين إلى أن إنتاج الملفوظات إنما يعد في الواقع شكلا من أشكال التفاعل الاجتماعي، ولذلك كانت أهم خاصية تميزت بها نظرية أوستين لأفعال الكلام –على حد تعبير ليونس (J. Lyons)– إقرارها الصريح بالبعدين الاجتماعي والفردي المتبادل للسلوك اللغوي، فهي توفر إطارا عاما لدراسة الفوارق التركيبية والدلالية التي وصفها اللسانيون بعبارات الضروب والجهات، مخالفا بذلك أصحاب الوضعية المنطقية في تحديدهم لمفهوم الدلالة الذي يقتضي أن تكون القضايا التي يمكن التحقق من صحتها تجريبيا هي القضايا الوحيدة التي تكتسب معنى ما، بخلاف الملفوظات الأخرى التي لا تعد سوى ملفوظات عاطفية»[31].

والغريب في الأمر أن فتجنشتاين و«على الرغم من العلاقات الوطيدة التي كانت تربطه بمؤسسي الوضعية المنطقية، سرعان ما تخلى عن هذا التمييز، أي بين وظيفتي اللغة الوصفية والعاطفية، إلى مفهوم تنوع الملفوظات الوظيفي؛ فاستخدام اللغة –حسب فتجنشتاين الذي كان كثيرا ما كان يردد بنادي العلوم الأخلاقية لكمبريدج قوله: «لا تسأل عن المعنى بل عن

الاستعمال»[32] شبيه باللعبة التي لا يمكن تعلم قواعدها إلا بممارستها. والتمكن من ناصية اللسان لا يقتصر على تعلم جملة من القواعد الإلزامية التي تسيِّر استعماله في كل الحالات، إنما يتم أيضا بالمشاركة في المبادلات الكلامية، التي يحدد كل واحد منها سياق اجتماعي خاص، وتسيّره أعرافا اجتماعية خاصة، مثلما سيتجلى ذلك بكل وضوح لدى الإثنوميتدولوجيين الذين عنوا بالجانب المعرفي للممارسات الاجتماعية»[33].

لقد كانت الممارسات اللسانية التي سبقت «ترى في أفعال الكلام التي نبه إليها أوستين مجرد نتيجة لفعل إخباري يمثل الحقيقة اللسانية الوحيدة التي يعنى بها الدرس اللساني؛ ففعل الاستفهام مثلا يعني من منظور بنيوي فعل إخبار الآخر بالجهل والرغبة في الخروج منه، متبوع بعملية نفسية تحول هذا الإخبار إلى استفهام، فتفسر معلومة الجهل على أنها طلب لمعلومات. وهو تصور لا يمَكّن من فهم النشاط الحقيقي للكلام، لأن وظيفة اللغة الأساسية لا تكمن لدى الإنسان في الإخبار فقط بل تتعداه إلى أمور أكثر خطورة؛ فبفعل الكلام يتخذ الفرد المتكلم مكانته ضمن الجماعة التي ينتمي إليها وفي أثناء تواصله مع الآخرين، فليس الاستفهام –على حد تعبير ديكرو (Oswald Ducrot) مثلا– مجرد إخبار عن جهل والرغبة في الخروج منه، بل هو قبل كل شيئ فعل يجعل به السائل المتلقي مجبرا على الرد ومتابعة المحادثة؛ إما بإخبار وإما بجهل على أقل تقدير»[34].

2–6– صلة التداوليات بالمنطق:

اجتهد المناطقة في إخضاع اللغة للوصف الدقيق، إلا أن الصلة بين التداوليات والمنطق اتسمت بالتضاد في عرف هؤلاء، وربما أهم المميزات التي اتسمت بها هي قطيعتها مع التصورات المنطقية، وكان ذلك مع تحول فتجنشتاين عن رؤيته المنطقية والدعوة «إلى منهج يتمثل لا في إخضاع اللغة لقوانين الحساب المنطقي بل في القيام بوصف دقيق لمختلف استعمالاتها، وعندئذ لم يعد للعلامة دلالة إلا من خلال استعمالاتها الممكنة في مختلف الألعاب اللغوية التي هي سفوح لسانية ذات نشاطات اجتماعية أوسع تحدد صورا من الحياة»[35]. وقد تحولت هذه الرؤية من فتجنشتاين إلى مدرسي أكسفورد أي من المنطق إلى اللغة العادية، فإن صلة التضاد مع المنطق أصبحت واضحة، (وتولَّد تحليل جديد يحدد منذ البداية موضوعه ومناهجه في مقابل التحليل المنطقي. فإذا كان أحدهما الذي هو صوري في جوهره، قد اتخذ موضوعا له القضية التي هي قول صريح يدرك مستقلا عن تواريداته الخاصة، فإن التحليل الآخر، الذي هو غير صوري، ينفتح للفروق وحتى للدقائق الضمنية في الاستعمال السياقي للأقوال الفعلية)[36].

وتأكيدا لما سبق ذكره في هذا المجال وجدنا أنه «ليس من الغريب أن يقر جون سيرل –وهو واحد من أبرز ممثلي نظرية أفعال الكلام– انتمائه إلى التوجه الذي بني في إطار الفلسفة التحليلية على جملة من ردود الفعل اتجاه منطق فريغه، فقد شق هذا الأخير لروسل، وفتجنشتاين وأوستين مسالك بحث جديدة. وليس إسهام فريغه في مسار التداوليات بالمجهول، فقد كان له السبق في التمييز تمييزا صريحا بين اللغة العلمية، الغاية منها إحقاق الحقيقة، وبين الألسن الطبيعية، الغاية منها تحقيق التواصل. أما اللغة العلمية فالواجب في الملفوظات التي تنتجها أن تكون أحادية المعنى (Univocite) ، معلومة المنطقية وبسيطة، متحررة من العلاقات الحوارية ومن سلطة الأفراد المتحاورين، أما الألسن الطبيعية فإن جل الملفوظات التي تنتجها صفتها الأساسية التعدد الدلالي، والثراء والغموض، ملتبسة روابطها المنطقية ومركبة، مرهونة بالعلاقات الحوارية، خاضعة للرغبة في الإقناع والإبهار وجلب الانتباه، تسيّرها قواعد البلاغة والانفعال (Affectivite). ولئن حرص فريغه على التخلص مما يشوب الألسن الطبيعية من خصائص التواصل اليومي، فإنه في الآن ذاته، أسهم في بيان هذه الخصائص والتنبيه على بعدها التداولي»[37].

وفي مجال علم اللغة المعاصر «يرتبط اسم فريغه بالمنطق الحديث بصفة المؤسس، ولقد أضافت إلى هذا العلم جملة الإبداعات حتى ليغدو تاريخ المنطق موزعا إلى مرحلتين رئيسيتين هما؛ مرحلة المنطق الحديث ومرحلة ما بعد منطق فريغه. بيد أن المنطق كما فهمه فريغه ومارسه، يختلف من مناحي شتى عما هو متداول من المنطق ودرس حاليا. ولعل أحد الأسباب في ذلك يكمن في أن بحوث فريغه المنطقية غالبا ما كان يوجهها مشروع فلسفي سرعان ما اتضحت استحالة تحقيقه، وها هنا تكمن مفارقة عجيبة، يقع فريغه من المنطق موقع المؤسس لكن تصوره للمنطق لم يعد يقاسمه فيه أحد. ولم يكن الهدف الذي كان يرومه فريغه إصلاح المنطق بل حاول وضع أسس علمية جديدة لعلم الحساب (Arithmetique)، فلقد بدت له عيوب هذا العلم كما كان مزاولا في عصره كثيرة، أهمها عدم وضوح التعريف الذي كان يرتضيه معاصروه من الفلاسفة والرياضيين لمفهوم العدد (Nombre) فلم تكن الحاجة إلى توطيد أسس كانت غير ثابتة، بل أضحت الحاجة استكشاف لأول مرة. لذلك عمد فريغه إلى إثبات أطروحته، عن طريق البرهان، مؤداها أن لا فرق ذي أهمية بين المنطق وعلم الحساب، ولا شيئ من مواضيع علم الحساب ما هو غير ذي طبيعة منطقية، ولا طريقة في البرهنة في علم الحساب ولا تستند إلى المنطق. ومن ثم فإن إحدى دلالات النزعة المنطقية (Logicisme) استنتاج علم الحساب من داخل المنطق»[38].

وبالعودة إلى ما جاء به فريغة من نظريات فقد «كان للتمييز الذي أحدثه فريغه بين المعنى (Sinn) والإحالة (Bedeutung)* أثر بليغ في تطوير دلالات منطقية، وبات هذا التمييز إحدى الفوارق التي ما انفكت تغذي أطروحات التحليل الفلسفي المنطقي وأدبيات القرن العشرين في الفلسفة التحليلية. وإلى هذا التمييز ينضاف تمييز آخر لا يقل أهمية عن الأول، وهو الذي يقيمه فريغه بين السياق اللساني والسياق غير اللساني، أما الأول فمنشأه مبدأ يقر به فريغه ضرورة مقاربة دلالة الكلمة انطلاقا من معنى الجملة، وهذا الأخير يستند إلى مفهوم شروط الصدق: إن التعرف على معنى الجملة يقتضي التعرف على الشروط التي يجب توفرها حتى تصبح الجملة صادقة. وقبل أن نمضي في بيان إسهامات فريغه في حقل الدلاليات المنطقية يجب أن نحترز بالتمييز بينها وبين الدلاليات اللسانية، فالدلاليات المنطقية كما يعرفها جون ليونز، أو الدلاليات الخالصة كما يسميها كارناب، هي دراسة المعنى بالاستعانة بالمنطق الرياضي، ويستعمل المنطقيون عادة مصطلح الدلاليات المنطقية للدلالة على دراسة المعنى أو تفسير ملفوظات الأنساق المنطقية. تعد مسألة المساواة المنطقية من بين مسائل المنطق الأساسية التي واجهت فريغه في سعيه إلى فك ارتباط الرياضيات بالمنطق، فقد كانت هذه الأخيرة، في أيامه، لا تمتلك لغة رمزية، بل كان الباحثون فيها يستخدمون مفاهيم الألسن الطبيعية اللهم إلا بعض الرموز القليلة»[39].

3– خاتمة:

بعد هذا العرض المقتضب للتداخل المعرفي بين التداولية والمعارف الإنسانية خلصنا إلى أن التداولية ليست علما لسانيا فحسب تستمد إجراءاتها من كل ما تعلق باللغة أثناء الاستعمال؛ بل هي علم له روافد وجذور ومعطيات في علوم أخرى غير لسانية؛ لأن اللسان وعلوم اللسان ظواهر ارتبطت أصلا بقضايا المجتمع والتواصل، والتفكير والفلسفة والمنطق، والنفس الإنسانية، وهذا قد أكسبها صفة التوسع والغنى في صناعة نفسها وبالتالي فرضت منطقها العلمي في المجال اللساني لتدحض مقولة أن التداولية هي سلة مهملات اللسانيات من جهة، ومن جهة مقابلة أعطت هذه الشمولية في مشارب هذا العلم أهمية بالغة للدرس التداولي في خضم تطور العلوم وتشعبها وتقاطعها وخدمة بعضها البعض.

4– قائمة المصادر والمراجع:

(1)الكتب:

– خليفة بوجادي،في اللسانيات التداولية، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ط.01، 2009.

- دوني فرنان، مدخل إلى فلسفة المنطق، تر. محمود اليعقوبي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2006.
- رافع النصير الزغول، وعماد عبد الرحيم الزغول، علم النفس المعرفي، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن.
- محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، دراسة المفاهيم والنشأة، مكتبة الآداب علي حسن، القاهرة، ط.01، 2013.
- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، دار الروافد الثقافية، بيروت، لبنان، ط.01، 2017.
- ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، د.ت.

(2): المجلات:

- أحمد الجوة، التداولية وتحليل الخطاب، مجلة الخطاب، تصدر عن مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، الجزائر، ع.08، 2011.
- سامية بن يامنة، الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، مجلة دراسات أدبية، دورية فصلية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية، ع.01، جمادى الأولى 1429هـ، ماي 2008، الجزائر.

(3) الرسائل المخطوطة:

- هواري بلقندوز، التداوليات النصية مقاربة في فهم الخطاب وتأويله، مخطوط دكتوراه، جامعة وهران، الجزائر، 2008-2009.

(4) المراجع الأجنبية:

- Alain Rey, théorie du signe et du seus, Lecture II, Paris, Ed, Klincksieck, 1976.
- Frank Marchand, Manuel de linguistique appliquée T.1 Lacquisitio, du langue, ED de lagrave, Paris, 1975.

5.الهوامش:

1- سامية بن يامنة، الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، مجلة دراسات أدبية، دورية فصلية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية، ع.01، جمادى الأولى 1429هـ، ماي 2008، الجزائر، ص.47.
2- المرجع نفسه، ص.47.
3- سامية بن يامنة، الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية،، ص.51.
4- سامية بن يامنة، الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، ص.57.
5- محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، ص.80.

6- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، دار الروافد الثقافية، بيروت، لبنان، ط.01، 2017، ص.ص.84-85.
7- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.85.
8- المرجع نفسه، ص.85-86.
9- محمود عكاشة، البراغماتية اللسانية (التداولية)، ص.76.
10- محمود عكاشة، البراغماتية اللسانية (التداولية)، ص.77.
11- ينظر: خليفة بوجادي،في اللسانيات التداولية، ص.130-132.
12- ينظر: المرجع نفسه، ص. 132.
13- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.82.
14 - Frank Marchand, Manuel de linguistique appliquée T.1 Lacquisitio, du langue, ED de lagrave, Paris, 1975, P.52.
15- ينظر: رافع النصير الزغول، وعماد عبد الرحيم الزغول، علم النفس المعرفي، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ص.239.
16- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.83.
17- المرجع نفسه، ص.84.
18- ينظر: ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، د.ت. ص.102.
19- ينظر: مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.66.
* وقد ترجم من الألمانية إلى الإنجليزية بجامعة أكسفورد سنة 1968 على يد ج أوستن.
20- ينظر: محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، ص.13.
21- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.66.
22- المرجع نفسه، ص.66.
* منها نظرية الأوصاف Theo لروسل ونظرية ألعاب اللغة Jeux لفتجنشتاين، وتركيبات كارنات المنطقية syntox والدلالات الصورية للألسن الطبيعية semanti وبحوث حلقة فيينا والبحوث الفلسفية الحديثة.
23- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.66-67.
24- المرجع نفسه، ، ص.67.
* منهم جماعة رافقت النزعة المنطقية لتحليل اللغة، وجماعة رافقت تراجع هذه النزعة، وأكدوا على وصف الحالات والسياقات والظروف التي يتم فيها استعمال اللغة، وجماعة أخيرة تبنت نشأة الأنساق المعرفية متجاوزة المنطق إلى اللغة العادية.
25- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.68.
26- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.71.
27- المرجع نفسه، ص.71-72.
28- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.72.
* وبالرجوع إلى آراء علماء التراث العرب نجد أن الجاحظ والقزويني يتقاطعان كثيرا في هـ<الشأن مع ما جاء به أوستن، ومن ذلك انحصار الخبر في القسمين المذكورين، كما زعموا أنه ثلاثة أقسام، صادق وكاذب، ولاصادق ولاكاذب، وللاطلاع على هذه القضية ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص.59.
29- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.76-77.
*وهؤلاء يتفرقون على اتجاهات فلسفية اهتمت بدراسة اللغة فمنهم المناطقة والماديين والمثاليين والنفسانيين.

30- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.77-78.
31- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.78-79.
32- والعبارة مأخوذة من الإنجليزية وهي كالتالي:
Dont ask for the meaning ; ask for the use.
Voir : Alain Rey, théorie du signe et du seus, Lecture II, Paris, Ed, Klincksieck, 1976, P.63.
33- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.79.
34- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.79.
35- دوني فرنان، مدخل إلى فلسفة المنطق، تر. محمود اليعقوبي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2006، ص.214.
36- المرجع نفسه، ص214.
37- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.73.
38- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.74-75.
* ولدى فريغه المراجع أو المرجع Bedenting لاسم مناسب هو الكائن الذي يعنيه أو يشير إليه، في حين أن معناه (Sinn) هو ما يعبر عنه الاسم مرجع الجملة هو قيمتها الحقيقية في حين أن معناها هو الفكرة التي تعبر عنها.
39- مختار زواوي، فصول في تداوليات ترجمة النص القرآني، ص.75-76.